الارتباط التجاري بين الموحدين وإمارات جنوب أوروبا
بين زمني السلم والحرب

الباحث جمال رداحي
باحث في تاريخ الغرب الإسلامي
حاصل على الدكتوراه في التاريخ الوسيط من كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة
المغرب

تقديم:

تعتبر التجارة من الأنشطة التي عرفت رواجا خلال العصر الوسيط بالمغرب، وذلك راجع لمجموعة من الأسباب أولها الموقع الذي يتوفر عليه المغرب، فهو يعتبر همزة وصل بين بلاد السودان الغربي والدول الأوربية، وكذلك بين هذه الكيانات والشرق الإسلامي الشيء الذي جعل بلاد المغرب ترتبط بعلاقات تجارية مع الكيانات السياسية المجاورة له.

إذا كان ت بعض المصادر تصور العلاقات بين المسلمين والمسيحيين خلال العصر الوسيط على أنها علاقات حرب وعداء، فعند الإطلاع على هذه العلاقات يتم إدراك أن فترات السلم كانت أطول بين الطرفين، وخلال هذه الفترات كانت التجارة نشيطة بين الأوربيين وبلاد المغرب، بل هناك بعض الباحثين من يعتبر التجارة الأوربية المغربية من العلاقات التجارية التي كانت لها أهمية كبيرة في العالم خلال العصر الوسيط.

من هذا المنطلق سنحاول من خلال هذه الدراسة تبيان مميزات العلاقات التجارية التي ربطت الموحدين بالضفة الشمالية للبحر المتوسط، خاصة المدن الإيطالية الممالك النصرانية وخصوصية هذه العلاقات في فترات السلك وكذلك الحرب.

أولا: العلاقات التجارية بين الدولة الموحدية وإمارات جنوب أوربا

ترجع العلاقات الاقتصادية عامة والتجارية على الخصوص بين ضفتي البحر المتوسط إلى فترات زمنية ضاربة في التاريخ، ولم ترتبط بفترة ما بعد الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، بل تعود إلى ما قبل ذلك، خاصة خلال فترة الرومان والبيزنطيين، واستمرت مع الفتح الإسلامي خلال القرنيين السابع والثامن الميلاديين، إذ تشير الكثير من النصوص اللاتينية إلى ارتياد الكثير من تجار البندقية موانئ الشمال الإفريقي خلال القرن الثامن الميلادي، كما تدل على ارتياد بعض التجار المسلمين على صقلية لتوفير حاجياتهم المختلفة[1]. واستمرت العلاقات والروابط الاقتصادية بين البلاد الإسلامية وبين البلدان غير الإسلامية من خلال تشجيع الأنشطة التجارية، وإنشاء المؤسسات المحفزة على التجارة الخارجية كالفنادق واستقبال التجار الأجانب المسيحيين وغيرهم فيها[2].

حظي التجار الإيطاليين بمكانة مرموقة وكبيرة في إفريقية قبل الموحدين، خاصة التجار البيزانيون، إذ تطلعنا المصادر على وثيقة ذات أهمية بالغة، والمتضمنة لما وجهه عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الحق بن أبي خراسان في جمادى الأولى سنة 522هـ. إلى رئيس حكومة بيزة ورئيس أساقفتها والمتضمنة تذكيره بالاتفاقيات المبرمة مع سفير بيزة أبي تميم ميمون بن غليوم[3].

استمرت ممارسة المدن الإيطالية للأنشطة التجارية على السواحل المغربية في فترة ما قبل الموحدين، خاصة خلال الفترة المرابطية، حيث بلغت التجارة الدولية مكانة عظيمة في عصرهم، وازدياد إقبال أوربا على تجارة المغرب في هذه الفترة والدليل على ذلك شيوع الثقة بالدينار المرابطي، فطار ذكره في الأفاق، حتى وصل القسطنطينية وكاد بذلك يصبح عملة دولة[4].

إن المكانة السياسية والموقع الجغرافي الاستراتيجي الذي تبوأته الدولة المرابطية مكنها من التحكم في تجارة الذهب مع بلاد السودان عبر سجلماسة والإشراف عليه في طريقه إلى الدول الأوربية، الأمر الذي فرض إقامة علاقات تجارية مع الدول الأوربية بصفة عامة وجمهوريات المدن الإيطالية عل الخصوص، وإن بداية هذه العلاقات نلمسها في المعاهدة التي أبرمت بين ملك المغرب، ومدينة بيزة سنة 527هـ./ 1133م حيث وصلت سفينتان إفريقيتان إلى مدينة بيزة تقلان رسل ملك المغرب، تم خلالها إبرام معاهدة سلم بين السفراء المغاربة وجمهورية بيزة[5]. لم يتعلق الأمر بمدينة بيزة فقط، فمدينة جنوة هي الأخرى حظيت بامتيازات تجارية كبيرة في الأقاليم المغربية، كما حظيت باحترام من قبل أمير المرابطين مما أهلها لى تبوء مكان الوسيط بينه وبين مدن ساحل البروفانس، حيث أسست هذه الأخيرة تحالفا مع جنوة لمساعدتها غلى التقرب من أمير المرابطين وعقد معاهدات واتفاقيات تجارية معه، مع الالتزام بعدم ممارسة أعمال القرصنة ضد رعايا أمير المرابطين[6].

إذا كانت العلاقات التجارية الخارجية للبلدان الأوربية مع الدول الإسلامية علاقات متدبدبة، فإننا خلال هذه الفترة نجد العلاقات بين المدن الإيطالية والغرب الإسلامي من بين أكثر العلاقات التجارية نشاطا ووثوقا، إذ ازدهرت العلاقات المغربية الإيطالية خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، وذلك نتيجة مجموعة من الظروف منها الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والجغرافية...، التي تضافرت ونتج عنها تطور المبادلات التجارية، من أهم الظروف التي ساهمت في تطور العلاقات التجارية بين المغرب في الفترة الموحدية هو قرب المدن الإيطالية من سواحل الدولة الموحدية، وكذلك ارتباط مدن جنوب ايطاليا كالبندقية بالإمبراطورية البيزنطية، وبالتالي تمتعها بكثير من الحرية والاستقلالية الشيء الذي منحها الفرصة للاحتكاك بالموانئ الإسلامية، وإقامة علاقات تجارية تمثلت في جلب السلع من البلاد الإسلامية وتسويقها إلى مناطق الوسط والشمال الأوربي، ومن تم تصدير المنتجات الأوربية إلى البلاد الإسلامية والتي يأتي في مقدمتها العبيد والسلاح[7]، بالإضافة إلى ذلك التطور الذي عرفه بلاد المغرب في مختلف القطاعات الاقتصادية حيث انتعشت الزراعة والصناعة، التي نجم عنها ازدهار التجارة الخارجية، مما انعكس إيجابا عل تطور نشاط التجارة الخارجية بشكل هام، إذ تضاعفت الاتصالات وفتحت الكثير من الموانئ التجارية، وأصبح المغرب يمثل بشكل إجباري الوسيط التجاري بين أوربا وبلاد السودان، الأمر الذي ساهم في تطوير العلاقات التجارية خاصة بين بلاد المغرب والمدن الإيطالية[8].

لم يزدهر الاقتصاد المغربي فقط خلال هذه الفترة، فقد شهدت المدن الايطالية نهضة اقتصادية وانبعاث في الحياة الحضارية، وذلك بتحرر المدن من السيطرة الاقتصادية بتحرر اليد العاملة، من خلال توفر المحاصيل الزراعية، حيث نتج عن تحرر اليد العاملة حدوث تجمعات في المدن الصغيرة لكثير من طوائف الصناع والحرفيين، ومساهمتهم في تطوير الإنتاج الصناعي المتزايد، وازدياد المهارة والمنافسة، وبذلك تحقيق الاكتفاء الذاتي في كثير من المجالات الصناعية كالمنسوجات والصناعات الجلدية والأسلحة[9].

إذا كانت العلاقات التجارية للمدن الإيطالية مع المغرب عرفت انفراجا وربط العديد من الاتفاقيات والمعاهدات، فإن العلاقات التجارية في عهد المرابطين والممالك النصرانية ارتبطت أساسا بعلاقة الطرفين السياسية، خاصة وأن المرابطين خاضوا حروبا طاحنة مع نصارى اسبانيا جعلت التجارة معهم ومع أوربا لا تزدهر إلا في أوقات الهدنة[10]، وهذا ما دفع المرابطين إلى البحث عن مناطق أخرى، فتعاملت مع صقلية والمدن الإيطالية التي بسطت سيطرتها على البحر المتوسط في أواخر القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، إلا أن هذه العلاقات كانت بها بعض المخاطر خاصة وأن المرابطين كانت تطلعاتهم كبيرة للسيطرة على الحوض الغربي للبحر المتوسط[11]، وهناك العديد من العقود والوثائق التجارية التي وقعت ما بين المغرب وأوربا سواء المدن الإيطالية أو الممالك النصرانية الإسبانية سنحاول تحليلها ومناقشتها في هذا البحث والتي تبين حجم ومكانة العلاقات التجارية بين الطرفين.

ثانيا: العوامل المساعدة على توطيد العلاقات التجارية بين الموحدين وأوروبا خلال العصر الوسط

كما سبقت الإشارة إلى أن العلاقات لبلاد المغرب الإسلامي مع الجمهوريات والمدن الايطالية تعود لفترات تاريخية ضاربة في الزمن، لكن حسب ما تتضمنه المصادر التاريخية الخاصة بالفترة، فأن بداية المعاملات بين الطرفين تعود إلى القرن السادس الهجري، أي خلال الفترة المرابطية، حيث بدأت هذه الإمارات ترغب في السيطرة على تجارة البحر المتوسط، أما الدولة المرابطية فإن منطلقها في ربط هذه العلاقات كان من موقعها السياسي والعسكري في الأندلس، وكذلك انطلاقا من قناعات دينية، واتصفت العلاقات بين الطرفين في هذه المرحلة بغير المباشرة وغير الرسمية[12]، أما التعامل الرسمي بين المغرب والإمارات الايطالية فيعود للقرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، حيث يمكن اعتبار هذه الفترة الانطلاقة الفعلية للعلاقات السياسية بصفة عامة بين الطرفين، والتجارية على وجه الخصوص، حيث تم توقيع أول معاهدة تجارية مع المرابطين سنة 532هـ./ 1137م[13].

منذ هذه الفترة بدأت العلاقات بين المغرب والمدن الايطالية تأخذ اتجاه عكس ما كانت عليه في السابق، وهذا التغيير فرضته عدة عوامل منها:

التحول الاقتصادي الذي شهدته شبه الجزيرة الايطالية والمتمثل في المنتجات الصناعية التي فرض عليها إيجاد أماكن للتسويق الداخلي والخارجي، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن حاجتها إلى إستراد المعادن النفيسة كالذهب، الذي كانت تستورده من المغرب، فهو كان يقوم بدور الوسيط ما بين السودان وأوربا المتوسطية وبالتالي يقوم بتزويده بمادة الذهب[14]، وأغلب المؤرخين المهتمين بالعلاقات بين المدن الايطالية والمغرب خلال العصر الوسيط، يعتبرون أن هذا العامل من بين أهم العوامل الأساسية الأكثر أهمية في تحديد العلاقات الرابطة بين هاتين الضفتين المتوسطيتين، فمادة الذهب شكلت أحد العوامل التي ساهمت في إبراز الدويلات الايطالية، كمجالات سياسية متميزة بمؤهلاتها التجارية في حوض البحر المتوسط، وأصبحت البندقية وجنوة وبيزة وصقلية مراكز للتبادل والتواصل بين المغرب وأوربا الجنوبية بصفة عامة والمدن الايطالية على وجه الخصوص.

كما تخبرنا الكتب التاريخية والرسائل الدبلوماسية أن جمهورية جنوة، عرفت سياستها الخارجية مع دول الغرب الإسلامي من منتصف القرن الثاني عشر تحولا جذريا، لاقتناعها بضرورة العدول عن تفضيل العمل العسكري في تعاملها مع سلاطين المغرب الإسلامي في الحوض الغربي، وشرعوا منذ ذلك الحين يجنحون الخيار الدبلوماسي وتشجيع فرص التواصل الودي، وفتح مجال التفاوض للحصول على المكاسب والامتيازات[15]، حيث أرسلت أول سفارة إلى السلطان عبد المومن بن علي عام 562هـ./ 1161م، ويورد ماس لاتري أنه تم " عقد معاهدة سلم وصلح بين الموحدين وجمهورية جنوة، وتضمن أيضا ضرورة حماية التجار الجنويين مع تحديد قيمة الضرائب التي تأخذها من طرف التجار[16].

تزامن هذا النشاط الاقتصادي في مجال المبادلات التجارية الذي بدأت تعرفه خاصة المراكز البحرية للجمهوريات الايطالية وباقي مدن الممالك النصرانية كبرشلونة ومارسيليا، التي أصبحت تضاعف اهتمامها بالبحر المتوسط ليصبح مصدر قوتها وازدهارها الاقتصاديين على مستوى أشمل، فإذا كانت الجمهوريات الايطالية فقد عرفت ازدهارا خلال هذه الفترة، فهناك ممالك نصرانية أخرى ازدهرت، وعلى سبيل المثال عرفت مدينة مارسيليا منذ القرن الثاني عشر الميلادي ازدهارا متميزا بفضل التجارة الدولية[17]، ومن جهة أخرى كانت صناعة السفن مع توفر المواد الأولية أحد العوامل التي أعطت لصناعتها زخما كبيرا، أما برشلونة فقد أصبحت محطة تجارية تجمع بلاد الغرب النصراني ودار الإسلام بمختلف مكوناتها وبالخصوص بلاد الغرب الإسلامي، زيادة على ذلك أصبحت موضع جذب للطرق التجارية النصرانية المارة بجبال البرانس الشرقية، هذه العوامل جعلت من برشلونة ورشة ذات علاقة مباشرة بالتجارة البحرية[18].

لم يكن العامل الاقتصادي المحدد الأساسي في تشكيل الروابط التجارية بين المغرب والمدن الايطالية، فهناك عوامل أخرى منه العامل الطبيعي، فمثلا نجد البندقية طبيعيا منغلقة على مجموعة من الجزر، لا تملك بحكم الظروف الطبيعية والتضاريسية مجالا لممارسة الفلاحة

كالزراعة، ومن هنا ظل النشاط الاقتصادي للبندقية يرتكز على التجارة بنسبة كبيرة[19]. أما جنوة فقد تميزت بخصوصيات طبيعة ممثلة في موقعها على حدودها، جعل مجالها الجغرافي تكاد تنعدم فيه البسيطة تقريبا، فأصبح البحر هو المتنفس الوحيد للجنوي، فميز هذا الواقع نمط العيش في المجتمع الجنوي أن يكون مرتبط بالبحر بصفة كبيرة[20]، وهذا العامل هو ما جعل جنوة تتجه نحو النشاط التجاري، خاصة التجارة البحرية.

أما بيزة التي كانت تملك أسطولا مهما وتجارة قوية كانت أيضا تملك صناعة النسيج الذي يعتمد على الإنتاج الفلاحي، فكانت في توجهاتها الاقتصادية يتجاذبها البر أحيانا والبحر أحايين أخرى[21].

من هنا يتضح أن العامل الطبيعي كان له الدور الكبير والفعال في توطيد العلاقات التجارية بين المغرب والمدن الايطالية، فالإضافة إلى ما سبق ذكره فقد شكل القرب بين الطرفين وانتمائهم لحوض البحر المتوسط وانفتاحهم على البحر عاملا مهما في تواصلهم وتبادلهم التجاري.

كل هذه العوامل فرضت على الجمهوريات الايطالية العمل على ربط علاقات مع بلاد الغرب الإسلامي بمجموعة من المعاهدات والاتفاقيات التي تمكنها من الحصول على بعض الامتيازات الاقتصادية بصفة عامة، والتجارة على الخصوص، هذا الأمر هو الذي خلق نوعا من المنافسة الشديدة سواء ما بين المدن الايطالية أو بينها وبين الممالك النصرانية في جنوب أوربا من أجل التحكم في التجارة مع بلاد المغرب وكثيرا ما أفضت تلك المنافسة إلى مواجهات بينها على سواحل بلاد المغرب[22].

تضم المصادر التاريخية نصوص عديدة عن هذه المنافسة والمواجهات، خاصة ما ذكر منها في الحوليات الجنوية، ما بين البيزيين والجنويين أو مع أحد الطرفين البنادقة أو مارسيليا، ومن أمثلة ذلك ما حدث سنة 1165م من استيلاء البيزيين على شوانى[23] جنوية كانت عائدة من سبتة والعمل على إغراقها، وفي المقابل وفي شتاء نفس السنة استولى الجنويون على سفينة بيزي، وفي سنة 1194م هاجم البيزيون بطسة[24] للجنويين كانت مشحونة بسلع باهظة الثمن بسبتة ومتجهة نحو الإسكندرية، وفي سنة 1209م جهز قناصل جنوة ثلاث شواني تحث قيادة امبرتشو واستولوا على جزيرة قرب مارسيليا، كما استولوا على بطسة[25] للمارسيليين كانت متجهة إلى بجاية، والأمثلة عن تلك المواجهات كثيرة في المصادر[26].

أما بالنسبة للدولة الموحدية فإن الخليفة عبد المومن بن علي الكومي نظر النظرة ذاتها إلى ما ينبغي أن تكون عليه العلاقات بين الموحدين وبين الإمارات في جنوب أوربا، فمن أجل الحفاظ على إمبراطورية مترامية الأطراف، يجب فتح مجالات التطور والازدهار الاقتصادي أمامها، خاصة وأن مجالات التبادل الاقتصادي أصبحت ضعيفة مع بلاد المشرق بسبب التغيرات السياسية المعروفة في هذه الفترة، وبسبب النفور بين العباسيين والموحدين بعد إعلان الخلافة الموحدية[27].

هذه الظروف والعوامل سالفة الذكر هي التي دفعت جمهوريات المدن الايطالية (بيزة، جنوة،البندقية...) على تكثيف وجودها السياسي والتجاري ببلاد المغرب، وبصفة خاصة في المناطق ذات الحيوية التجارية كسبتة وبجاية وتونس وطرابلس[28]، خاصة بعد إخضاع كل من المغربين الأوسط والأدنى للسلطة الموحدية سنة 555هـ./ 1159م، وتمحور مجال التعامل مع جانب واحد ألا وهو السلطة الموحدية، بعد أن كانت خيارات التعامل متوفرة مع تعدد الكيانات السياسية المختلفة، فأصبح لزاما بذلك أن يتم تدوين الاتفاقيات والمصادقة عليها بختم الحاكم الأول في البلاد، ثم ترسل إلى الأقاليم ليعمل الولاة على تطبيقها[29].

خاتمة:

ما يمكن استنتاجه هو أن التجارة بين المغرب وبلدان جنوب أوربا هي ضاربة في التاريخ خاصة بين المغرب والمدن الإيطالية، أي لها جذور تاريخية قديمة جدا وليست وليدة العصر الوسيط، لكن يمكن القول أن الفترة الممتدة من القرن السادس الهجري إلى القرن الثامن شكلت فترة ازدهار تجاري في حوض البحر المتوسط بين المغرب وأوربا خاصة مع الجمهوريات الإيطالية كجنوة والبندقية وبيزة، ويمكن أن نربط هذا النشاط باهتمام الجمهوريات الإيطالية بالنشاط التجاري أكثر من العمل الحربي، عكس الممالك النصرانية الأخرى كقشتالة وصقلية وفرنسا، ومع أوائل القرن السابع الهجري أخذت مملكة أراغون تسير في اتجاه الإمارات الإيطالية مع استمرار العداء اتجاه المسلمين.

يمكن القول أن التجارة بين المغرب وبلدان جنوب أوربا كانت تتأثر بعوامل أخرى والمرتبطة أساسا بالصراع الديني بين الإسلام والمسيحية وبالتالي كانت تعرف تذبذبا ملحوظا.

الهوامش:

[1] بغداد غربي، العلاقات التجارية للدولة الموحدية، إشراف محمد بن معمر، رسالة دكتوراه، جامعة وهران1، 2014-2015، ص 164.

[2] علي السيد علي، العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، ط 1، 1996، ص 87.

[3] بغداد غربي، المرجع السابق، ص164.

[4] عبد الحليم العويس، دولة بني حماد، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط2، 1991، ص230.

[5] بغداد غربي، المرجع السابق، ص 169.

[6] نفسه المرجع، نفس الصفحة.

[7] رشيد باقة، نشاط جنوة الصليبي والتجاري في سواحل بلاد المغرب، أطروحة دكتوراه في التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر، قسطنطينة، 2006-2007، ص 213.

[8] بهيجة سيمو، العلاقات المغربية الإيطالية 1869-1912، دكتوراه الدولة في التاريخ، إشراف إبراهيم بوطالب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2001-2002، ج1، ص

[9] عزيز عطية، العلاقات بين الشرق والغرب (تجارية، ثقافية، صليبية)، دار العالم العربي، القاهرة، ط1، 1972، ص158.

[10] عيسى بن الذيب، التجارة في عصر دولة المرابطين، رسالة ماجستر، القاهرة، 1990، ص145.

[11] نفس المرجع، نفس الصفحة.

[12] بهيجة السيمو، المرجع السابق، ص171.

[13] نفس المرجع، نفس الصفحة.

[14] جورج جيهال، جنوة وبلاد المغرب في العصر الوسيط، ترجمة محمد الشريف، مجلة كلية الآداب ، تطوان، المغرب، العدد8، 1997، ص106.

[15] رشيد باقة، المرجع السابق، ص223.

[16] أمال سالم عطية، السفارات في المغرب الإسلامي خلال القرنين السابع والثامن الهجريين (ق13-14م)، رسالة دكتوراه، جامعة مصطفى اسطمبولي، معسكر، ص 151.

[17] محمد لمراني علوي، الإطار العام للعلاقات المغربية مع جمهوريات المدن الايطالية، البحر في تاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة الندوات رقم 7، المغرب، د ت، ص 211.

[18] أمال سالم عطية، المرجع السابق، ص 152.

[19] بهيجة السيمو، المرجع السابق، ج1، ص115.

[20] بغداد غربي، المرجع السابق، ص 172.

[21] بهيجة السيمو، المرجع السابق، 115.

[22] بغداد غربي، المرجع السابق، ص 173.

[23] هي سفينة طويلة لها مجادف، مصطفى نشاط، نصوص مترجمة ودراسات عن العلاقات الايطالية المغربية في العصر الوسيط، مكتبة الطالب، وجدة، ط 1، 2005، ص 14.

[24] مصطفى نشاط، المرجع السابق، ص 17.

[25] بطسة: تسمى بالمصادر الأوربية ب "Navis " أو "Nef " وهي سفينة متعددة السطوح والأشرعة وذات شكل دائري، أما أبعادها فتتمثل فيما يلي: يبلغ طولها من 23.06 مترا إلى 37.05 مترا، وعرضها من 9.13 مترا إلأى 10 أمتار، وارتفاعها من 3.70 مترا إلى 4.32 مترا. وكانت تستخدم في الرحلات الطويلة وتمتاز بحمولتها للمواد الثقيلة مثل الحبوب. مصطفى نشاط، المرجع السابق، ص 15.

[26] نفس المرجع، ص 14.

[27] حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، مكتبة الخناجر، مصر، ط1،1980، ص 243.

[28] محمد لمراني علوي، المرجع السابق، ص 210.

[29] رشيد باقة، المرجع السابق، ص 225.